

الدرس التاسع والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب في كتابه «أصول الإيمان» :

باب التشديد في طلب العلم للمراء والجدال

عن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ ؛ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ)) رواه الترمذي .

قال رحمه الله تعالى: ((باب التشديد في طلب العلم للمراء والجدال)) هذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان أهمية إصلاح النية في طلب العلم ، لأن العلم عبادة يتقرب بها المؤمن إلى الله سبحانه وتعالى ، فهو عبادة من العبادات وقربة من القرب التي يتقرب بها إلى الله عز وجل ، والله عز وجل لا يقبل العبادة إلا إذا كانت خالصة لوجهه سبحانه وتعالى ، لهذا جاء في الحديث القدسي أن الله تبارك وتعالى يقول : ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)) ؛ ولهذا جاء نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تحذر من صرف العمل لغير الله تبارك وتعالى ، وجاءت نصوص خاصة تحذر من طلب العلم لغير الله ، وأن طالب العلم إن طلب العلم لغير الله تبارك وتعالى لم يكن طلبه للعلم في عمله الصالح ، لأن العمل لا يكون صالحاً إلا إذا ابتغي به وجه الله عز وجل ، أما من ابتغى بعمله غير وجه الله عز وجل فلا يكون في عداد أعماله الصالحة ، ولهذا فإن من يطلب العلم للرياء أو للزعامة أو للشهرة أو للصيت أو لغير ذلك من الأغراض فإنه بذلك لا يكون في عمله الصالح المتقبل من الله جل وعلا .

ونصحاً من المصنف رحمه الله تعالى عقد هذه الترجمة للتحذير من فساد النية في طلب العلم ، وللتأكيد على أهمية إخلاص النية في طلب العلم ؛ قال: ((باب التشديد في طلب العلم للمراء والجدال)) ؛ التشديد: أي ما ورد من نصوص الشرع من الوعيد الشديد لمن طلب العلم ولم يكن غرضه في طلب العلم إلا المراء والجدال ؛ حتى يماري به السفهاء ويجادل به ، ليس غرضه بطلبه للعلم ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى ، وليس غرضه في طلب العلم أن يرفع الجهل عن نفسه أو يرفع الجهل عن إخوانه المسلمين ، وإنما غرضه منه الجدال والمراء والمماراة والشهرة ونحو ذلك من الأغراض ؛ فمن كان في طلبه للعلم هذا غرضه وهذا مقصده وهذا مطلوبه فإن طلبه للعلم ليس في

عداد عمله الصالح المتقبل ، لأن الله سبحانه وتعالى لا يتقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم تبارك وتعالى .

وأورد في هذه الترجمة جملة من النصوص فيها الدلالة على المقصود ، بدأها بحديث كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ)) ؛ ذكر عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث طلب العلم ولكن بنية فاسدة لا بنية خالصة لله تبارك وتعالى ، والنية الفاسدة لا تندرج تحت نوع معين بل إنها تشمل أنواعاً عديدة وأموراً كثيرة كلها تدخل في فساد النية ، وما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث ليس حصرياً لفساد النية في طلب العلم ، وإنما ذكر عليه الصلاة والسلام أمثلة يُطلب العلم لأجلها وتكون هي الغرض من طلب العلم وتكون دليلاً على فساد نية الإنسان في طلبه للعلم وأن نيته ليست خالصة لوجه الله تبارك وتعالى .

كمن يطلب العلم ((لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ)) ؛ وهذا طلب شهرةٍ وصيتٍ وسمعةٍ ، وهذا غرضه في طلب العلم أن يجاري العلماء ، رأى مكانة العلماء في الناس ورأى قبول الناس لهم ومحبة الناس لهم فأخذ يطلب العلم ليجاري العلماء حتى يقال عالم أو يقال فاق العالم الفلاني أو يقال أفحم العالم الفلاني أو نحو ذلك من الأغراض التي يريدونها في طلبه للعلم ، فهو يكابد ويجدُ ويجهد في الطلب ويسهر الليل ويحفظ ويراجع ويستذكر وغرضه من ذلك كله مجاراة العلماء ، حتى إذا حضر مجلساً فيه عالم أخذ يجاري العالم بأن يبرز ما عنده من علم حتى يقال إنه أفضل منه أو أقوى منه أو أمكن علماً منه أو يُفحِم العالم الفلاني أو نحو ذلك من الأغراض ؛ فهذه نية فاسدة ، ولا يكون طلب العلم ممن طلبه لهذا الغرض في صالح عمله الذي يتقبله الله تبارك وتعالى .

ولهذا بعض من كان غرضه في طلبه للعلم هذا الغرض فإنه يبحث عن غرائب المسائل ودقائقها ويتعمق فيها ويضيّع أصول الإيمان ومباني الإسلام وقواعد الشريعة ، لا يكون معتنياً بها ولكن يعتني ببعض دقائق مسائل العلم ، ثم إذا حضر مجلساً أخذ يتحدث عنها بنقّس طويل حتى يُلتفت إليه ، وهذا مراده بينه وبين نفسه ونيته في داخله هذا مراده ، والله العليم بسرائر الناس المطلع على ما في القلوب سبحانه وتعالى ، هذا مراده فيتكلم ويفصّل القول في المسائل حتى يبرز في المجالس وحتى يقال إنه فاق العالم الفلاني أو فاق فلاناً أو هو أفضل من فلان أو نحو ذلك من المدائح التي كان يطلب العلم لأجلها . وماذا يغني عنه هذا الغرض عندما يلقي الله سبحانه وتعالى ولا يجد هذا العلم الذي أمضى فيه وقتاً طويلاً ومدة طويلة لا يجده في صالح عمله ! بل يكون سبباً لدخوله النار لفساد النية والعياذ بالله ، فهذا مما يدل على التشديد والتحذير والوعيد الشديد في النصوص لمن طلب العلم ليس لوجه الله تبارك وتعالى وإنما لغرضٍ من هذه الأغراض .

قال: ((وليماري به السفهاء)) والممارسة: هي المجادلة ، ولا يكون الغرض فيها بروز الحق وثبوت وإبطال الباطل ، وإنما يكون الغرض فيها بروز الشخص نفسه وذيوع صيته بين الناس وأن يشتهر بالعلم أن يشتهر بالجدال

بالخصومات ، قال ((ليماري به السفهاء)) أي يجادل بهذا الشيء الذي حصَّله من العلم السفهاء ليكون بارزا فيهم ظاهرا عليهم ليس غرضه في طلبه للعلم أن يصلح بعلمه الذي من الله سبحانه وتعالى به عليه أحوال السفهاء ودعوتهم للخير وأخذهم إلى سبيل الاستقامة والهدى ، وإنما غرضه أن يبرز وأن يشتهر ، قال ((ليماري به السفهاء)).

((أو يصرف به وجوه الناس إليه)) أي أن تنصرف وجوه الناس إليه ، وهذا طلبٌ للشهرة والصيت بين الناس وأن يُلتفت إليه ويشار إليه بالأصابع ويقال هذا العالم وهذا الكذا من المدائح ونحو ذلك ؛ يكون هذا غرضه أن يطلب العلم لأجل هذه الأشياء ، أما من طلب العلم لوجه الله وأُثني عليه خيرا لم يكن طالبا لذلك ولم يكن غرضه في طلب العم ثناء الناس ومدحهم وأُثني عليه خيرا فإن هذا لا يضره إذا كانت نيته بينه وبين الله تبارك وتعالى صالحة ، وإنما الكلام هنا في حق من كان غرضه من طلب العلم هذه الأشياء ؛ يطلب العلم ليجاري العلماء أو ليماري السفهاء أو ليصرف بالعلم الذي عنده وجوه الناس إليه ، فمن كان غرضه في طلبه للعلم هذا الغرض أدخله الله النار يوم القيامة ، لأن العلم عبادةٌ وعمل صالح يُتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى وهذا لم يخلص في طلبه للعلم ولم يقصد بطلبه للعلم وجه الله سبحانه وتعالى فكان طلبه للعلم في عمله السيء لفساد نيته ولم يكن في عمله الصالح.

قال رحمه الله تعالى :

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا : ((مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ)) ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدًّا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه .

ثم أورد رحمه الله تعالى حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه مرفوعا أي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال : ((مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ)) أي ما ضلَّ قوم عن الخير وحسن الإقبال على الله سبحانه وتعالى وتحقيق العبودية له والذل بين يديه والقيام بطاعته سبحانه وتعالى كما يحب من عباده إلا أوتوا الجدل؛ أي إلا ضاعت أوقاتهم هدرًا في الجدل والخصومات . وهذا من الدلائل على فساد النيات في طلب العلم ، لأن العلم إذا طُلب بنية خالصة وابتغى به وجه الله سبحانه وتعالى أثمر العمل وصلحت به القلوب ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] ، العلم أساس الخشية لله تبارك وتعالى ، ولكن لا تتحقق ثمار العلم إلا إذا أخلص به صاحبه لله وابتغى به وجه الله سبحانه وتعالى ، وإذا أريد بالعلم أغراضًا أخرى لم يثمر عملا صالحا ولهذا قال : ((ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)) يكون طلبهم للعلم للجدل

والخصومات مثل ما مر معنا في الحديث السابق قال: ((من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري السفهاء)) ؛ فيكون طلبهم للعلم واستذكارهم له وبحثهم في مسائله المراد منه الجدل والخصومات ، وهذا من الدلائل على فساد النيات في طلب العلم . قال ((ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)) .

((ثُمَّ تَلَا أَيُّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾)) أي ليس لهم غرض في العمل الذي يدعو إليه العلم ، وليس لهم غرض في العبودية التي يدعو إليها العلم ، وإنما غرضهم في العلم الخصومة والجدل ؛ فهذه نية فاسدة ، لأن النية الصالحة تثمر لصاحبها خشيةً لله تبارك وتعالى وجدًّا واجتهادا في التقرب إليه سبحانه وتعالى وبُعدًا عما نهى عنه تبارك وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُ الْخَصِمُ)) متفق عليه .

ثم ساق رحمه الله تعالى حديث أم المؤمنين عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ((إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُ الْخَصِمُ)) ؛ وهذا وعيد شديد ، وهذا فيه إثبات أن الله سبحانه وتعالى يبغض ، وأيضا هناك أدلة كثيرة في القرآن والسنة تدل على أنه سبحانه وتعالى يحب ، وإذا عرف المؤمن أن ربه تبارك وتعالى يبغض ويجب فإن هذا يدفعه للبحث عن محاب الله ليفعلها وللبحث عن الأمور التي يبغضها الله سبحانه وتعالى ليجتنبها . ومن الذي يرضى لنفسه أن يبغضه الله جل وعلا أن يبغضه خالقه سبحانه وتعالى!! من الذي يرضى لنفسه ذلك؟ إلا النفس الدنيئة الرديئة ، إذا أصبحت النفس دنيئة رديئة فإنها لا تبالي بهذا الأمر ؛ فتفعل أمورًا تعلم أن الله سبحانه وتعالى يبغضه إذا فعلها ولا يبالي بذلك . والشاهد أن المؤمن إذا عرف أن ربه سبحانه وتعالى يحب ويبغض فإنه يجتهد في معرفة الأمور التي يحبها الله جل وعلا ليفعلها وليكون من أهلها ، ويجتهد أيضا في معرفة الأمور التي يبغضها الله تبارك وتعالى ليجتنبها وليحذر منها .

وهنا في هذا الحديث قال: ((إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ)) وهذا فيه دليل على التفاضل في البغض ، وأن بغض الله سبحانه وتعالى للناس متفاوت بحسب ما هم عليه من أعمال سيئة ومخالفات وخروج عن طاعته سبحانه وتعالى ، وبغضه لهؤلاء المفرطين المضيعين لبعض أشد من بعض كما يدل على هذا الحديث .

قال: ((إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُ الْخَصِمُ)) والألد: من اللدد وهو الخصومة ، ومنه قوله تبارك وتعالى ﴿وَتُنذِرِبِهِ قَوْمًا لَدًّا﴾ [مريم: ٩٧] أي أهل خصومة ، ﴿قَوْمًا لَدًّا﴾ نظيره قوله تعالى في الآية المتقدمة ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ

خَصْمُونٌ . لذا: أي خصمون أي أهل خصومة واللدد هو شدة الخصومة . فأبغض الرجال إلى الله سبحانه وتعالى من كانت نفسه مولعة باللدد والخصومة ، مجالسه مجالس خصومات ولدد مشغولة بالمماراة والمجادلة، ليس له غرض في العبادة وتحقيق الخشية لله تبارك وتعالى وتحقيق الذل لله عز وجل ، وإنما غرضه في علمه وطلبه للعلم الدد والخصومة والجدل والمماراة ونحو ذلك من الأغراض ، فمن كان غرضه في طلب العلم هذا فإنه من أبغض الناس وأبغض الرجال إلى الله عز وجل .

قال رحمه الله تعالى :

وَعَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : ((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِأَرْبَعٍ دَخَلَ النَّارَ -أَوْ نَحْوَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ- لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ ، أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَوْ لِيَأْخُذَ بِهِ مِنَ الْأَمْرَاءِ)) رواه الدارمي .

ثم أورد رحمه الله هذا الأثر عَنْ أَبِي وَائِلٍ شقيق بن سلمة من علماء التابعين عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود الصحابي الجليل رضي الله عنه قَالَ أي ابن مسعود رضي الله عنه : ((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِأَرْبَعٍ دَخَلَ النَّارَ)) ؛ قوله «لأربع» أي لأغراض أربع كانت هي مقصده ومراده من طلبه للعلم ، لم يكن في طلبه للعلم مخلصا لله تبارك وتعالى مبتغيا وجه الله عز وجل وإنما طلب العلم لأحد أغراض أربعة ذكرها .

الثلاثة الأول منها تقدمت معنا في حديث سعد بن مالك وهي قوله: ((لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ ، أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ)) فهذه الأمور الثلاثة كلها تقدمت معنا في حديث كعب بن مالك . وزاد رضي الله عنه أمرا رابعا وهو: ((لِيَأْخُذَ بِهِ مِنَ الْأَمْرَاءِ)) أي طلب العلم وغرضه في طلبه للعلم أن يكون له مكانة عند الأمراء ومنزلةً فيعطونه الأموال ويغدقون عليه بالأعطيات ، وهذا هو غرضه في طلب العلم أن يكون له مكانة أو شأنا أو منزلة عند الأمراء ليأخذ منهم وليعطوه وليغدقوا عليه بالأعطيات والأموال ونحو ذلك ، غرضه في طلبه العلم ذلك ، ومن كان هذا غرضه في طلب العلم فنيته فاسدة لا يكون عمه في صالح عمله .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال لقوم سمعهم يتمارون في الدين : ((أما علمتم أن الله عبادةً أسكتهم خشية الله من غير صمم ولا بكم ، وإنهم لهم العلماء والفصحاء والطلقاء والنبلاء والعلماء بأيام الله ، غير أنهم إذا تذكروا عظمة الله طاشت عقولهم وانكسرت قلوبهم وانطلقت ألسنتهم ، حتى إذا استفاقوا من ذلك

تسارعوا إلى الله بالأعمال الزاكية يُعْذُّونَ أَنْفُسَهُمْ مع الْمُفْرَطِينَ وإِهم لأَكْيَاسِ أَقْوِيَاءَ ، ومع الضالين والخطّائين وإِهم لأَبْرَارِ بَرَاءَ ، أَلَا إِنْهم لَا يَسْتَكْثِرُونَ لَهُ الْكَثِيرَ ، وَلَا يَرْضُونَ لَهُ بِالْقَلِيلِ ، وَلَا يُدْأُونُ عَلَيْهِ بِأَعْمَالِهِمْ ، حَيْثُمَا لَقِيَتْهُمْ مَهْتَمُونَ مَشْفُقُونَ ، وَجَلُونَ خَائِفُونَ)) رواه أبو نعيم ، قال الحسن : وسمع قوماً يتجادلون : ((هؤلاء قوم ملأوا العبادة ، وخفّ عليهم القول ، وقلّ ورعهم فتكلموا)).

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الأثر عن ابن عباس ، وسند الأثر فيه مقال لكن الأثر مشتمل على معاني عظيمة وكلام صحيح في باب إخلاص النية والتشديد في طلب العلم للمراء والجدال .

((قال رضي الله عنه لقوم سمعهم يتمارون في الدين)) أي أن هذه المقالة التي قالها رضي الله عنه كان سببها أنه مر بقوم يتمارون في الدين ؛ أي جلسوا للمماراة والخصومة والجدل في الدين . والجدل الذي ورد ذمه في النصوص في نحو قوله تعالى ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدًّا ﴾ [الزخرف: ٥٨] يختلف عن المجادلة التي وردت في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] ، لأن المجادلة هي ذكرٌ للعلم وبيانٌ له واستشهادٌ بدلائله وحججه وبراهينه لإصلاح الناس وتوجيههم للخير وإبطال الباطل ؛ فهذا أمر أمر الله عز وجل به في قوله ﴿ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ، أما الجدل فإنه خوضٌ في مسائل العلم إنما بغير علم ، أو خوض في مسائل العلم بغير نية صحيحة كطلب شهرة أو محمداً أو إفحام من عنده أو بروزه عليهم أو نحو ذلك ، فسواء كان خوضاً في مسائل العلم بغير علم أو خوضاً في مسائل العلم بنية فاسدة وغرض فاسد فكل ذلك جدل محرم يوصل بالإنسان إلى المآلات التي لا تُحمد ، ولهذا جاء التحذير من الجدل قال: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدًّا ﴾ أي ليس لهم غرض في العلم ولا نية صحيحة فيه وإنما نيتهم وغرضهم فيه الجدل والخصومات .

وابن عباس مر - كما في هذه الرواية - على نفر يتمارون في الدين أي خاضوا فيه بالجدل والخصومات فقال رضي الله عنه: ((أما علمتم أن الله عبادةً أسكتهم خشية الله من غير صمم ولا بكم)) أي أن بعض الأكياس وأهل العلم قد يسكت في مجلس من المجالس وليس به صمم ولا بكم ، يسمع ويستطيع أن يتكلم بكلام أقوى من الكلام الذي يقال ، ولكنه يرى أن هذا مجلس خصومة ليس مجلس طلب للحق ، مجلس خصومة ومماراة ومجادلة وكل واحد يريد أن يُظهر كلامه على الآخر ؛ فيسكت لا يخوض معهم في حديثهم لأنه حديث لم يُرد به وجه الله عز وجل .

ولهذا يذكر عن الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى صاحب المصنفات المعروفة ومنها كتابه العظيم «جامع العلوم والحكم» الذي شرح فيه الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى ، ذكروا في ترجمته أنه جلس يوماً مع طلابه وتحدث في مسألة من مسائل الفقه وفصل القول فيها تفصيلاً واسعاً وأخذ يبين ويذكر الأدلة والشواهد بتفصيل عظيم

جدًا انتفع به طلاب العلم في مجلس العلم ، ثم إنه في المساء كانوا في مجلس وحصل في المجلس خصومة ومماراة في المسألة نفسها ، فالتفت طلابه إليه ينتظرونه يتحدث بشيء فما تحدث ، مع أنهم سمعوا منه تفصيلا واسعا في هذه المسألة بعينها فما تحدث بشيء ، وكانوا يلتفتون وينتظرون أن يتحدث فما تحدث بشيء ، وطلابه يرغبون أن يتحدث حتى أيضا يبرز علمه وفضله فما تحدث بشيء ، لما خرج سأله بعض طلابه مستغربين قالوا هذه المسألة فصّلت لنا فيها وهنا سكت!! قال: «المجلس الذي جلسته معكم مجلس أريد به الآخرة وأما هذا مجلس أريد به الدنيا وليس لي فيه غرض» . هذا مجلس أريد به الدنيا خصومة ومماراة وكل واحد يريد أن يغلب الآخر ويُسكت الآخر ، وأنا أسكت فلان وفلان أسكتني ؛ هذا غرضه فهذا لا تظهر فيه صلاح النية .

ولهذا هنا يقول ابن عباس ((أما علمتم أن الله عبادةً أسكتتهم خشية الله من غير صمم ولا بكم)) أي ليس بهم بكم لا يتكلمون ولا صمم لا يسمعون ، هم يسمعون ويتكلمون ويحسنون البيان لكنهم في مثل هذه المجالس مجالس الخصومات والجدل والممارات لا يخوضون فيها ولا يشاركون أهلها خصومتهم ومماراتهم .

قال: ((وإنهم لهم العلماء والفصحاء والطلقاء والنبلاء العلماء بأيام الله)) ليس بهم عي أو جهل أو عدم دراية بمسائل العلم ، هم أهل علم وأهل فصاحة وأهل طلاقة في الكلام وأهل نبل وفضل وأهل علم بأيام الله سبحانه وتعالى .

((غير أنهم إذا تذكروا عظمة الله طاشت عقولهم وانكسرت قلوبهم وانقطعت ألسنتهم)) ؛ ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله: «رأس العلم خشية الله جل وعلا» ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] .

قال: ((حتى إذا استفاقوا من ذلك تسارعوا إلى الله بالأعمال الزاكية)) وانظر هنا إلى العلم الذي يثمر عملاً ، وانظر أيضا إلى العلم الذي لا يثمر إلا وحشة في الصدور وتهاجراً بين الإخوان وتعادياً وبغضاء وشرواً وفساد وتقاطع وتدابير وغير ذلك من الأغراض ؛ ففرق بين علمٍ يثمر سكينة وطمأنينة وإيمانا وعبادة وإقبالا على الله سبحانه وتعالى ، وعلمٍ لا يثمر هذه الثمار ؛ ولهذا قال: ((حتى إذا استفاقوا من ذلك تسارعوا إلى الله بالأعمال الزاكية)) .

قال: ((يَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ الْمُفَرِّطِينَ ، وَإِنَّهُمْ لَهُمُ الْأَكْيَاسُ)) وهذه أيضا ميزة لهؤلاء ، لا يرى نفسه شيئا لا في العلم ولا في العبادة . ابن تيمية رحمه الله نقل عنه تلميذه ابن القيم ومعروف من هو ابن تيمية في علمه وعبادته أنه كثيرا ما كان يسمعه يقول «ما أنا بشيء ولست بشيء» ، فلا يرون أنفسهم شيئا لا في العلم ولا في العبادة ، وهذا قد ذكره الله سبحانه وتعالى عن المؤمنين الكَمَل من عباده في سورة المؤمنين قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (٦٠) ، قد سألت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها النبي

صلى الله عليه وسلم عن معنى هذه الآية قالت: يا رسول الله أهو الرجل يزني ويسرق ويقتل ويخاف أن يعذب؟ قال ((لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يُقبل)) هذا معنى قوله ﴿يُؤْتُونَ مَآتُواً وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ أي يقدمون ما يقدمون من الأعمال الصالحات والعبادات الزاكيات وقلوبهم وجلة أي خائفة ألا يُقبل منهم ، ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله: «إن المؤمن جمع بين إحسان ومخافة ، والمنافق جمع بين إساءة وأمن» ، المنافق أعماله سيئة وآمن من مكر الله ، والمحسن أعماله صالحة وخائف ، جمع بين إحسان ومخافة أي من الله سبحانه وتعالى ، بينما المنافق جمع بين إساءة أي في العمل ، وأمن أي من مكر الله سبحانه وتعالى .

قال: ((يعدون أنفسهم مع المفرطين وإنهم لأكياس أقوياء ، ومع الضالين والخاطئين)) يعدون أنفسهم مع الضالين والخاطئين ((وإنهم لأبرار برئاء)) أبرار في أعمالهم ، برئاء أي من سيء العمل وقبيحه ، ولكن من صلاحهم وزكائهم أنهم جمعوا بين الإحسان والمخافة ، عالم ولا يرى نفسه عالما ، ويُثقل عن الشافعي رحمه الله أنه يقول «من قال عن نفسه أنه عالم فقد جهل» ، فهو عالم ولا يرى نفسه عالما ، وعابد ولا يرى نفسه عابدا بل يرى نفسه مقصرا في العلم والعمل ، ولهذا لا يزال يطلب العلم ولا يزال أيضا يجتهد في العمل والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بهما .

قال: ((ألا إنهم لا يستكثرون له الكثير))؛ لا يستكثرون له أي لله جل وعلا الكثير أي من الأعمال ؛ فمهما قدموا من الأعمال وأكثروا من الطاعات يرونها قليلة لا يستكثرون له كثيرا . ((ولا يرضون له بالقليل)) بل لا يزالون مجتهدين في الإكثار من الأعمال الصالحة والقربات الزاكية التي يتقربون بها إلى الله سبحانه وتعالى .

قال: ((ولا يدُلُّون عليه بأعمالهم)) أي لا يمتنون على الله بالأعمال ، قال تعالى ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] فهم لا يمتنون على الله بأعمالهم، لا يقول الواحد منهم أنا الذي فعلت كذا وأنا الذي فعلت كذا ممتنا بعمله مدليا بعمله . قال: ((حيث ما لقيتهم مهتمون مشفقون ، وجلون خائفون)) أي هم ماضون على هذه الصفة خوف وشفقة وخشية من الله سبحانه وتعالى ، وفي مقابل ذلك أيضا جد واجتهاد في التقرب إلى الله عز وجل بصالح الأعمال وسديد الأقوال . وهذا الذي ذكر في هذا الأثر هو من أمارات الإخلاص ودلائله .

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الأثر عن الحسن البصري رحمه الله تعالى وقد سمع قوماً يتجادلون قال : ((هؤلاء قوم ملؤا العبادة ، وخفَّ عليهم القول ، وقلَّ ورعهم فتكلموا)) اجتمعت فيهم خصال ثلاثة:

❖ الخصلة الأولى: أنهم ملؤوا العبادة ؛ أي أصيبت قلوبهم بملل وسآمة من العبادة فنفرت من العبادة ، لا يقبلون عليها ولا تُقبل قلوبهم على القيام بها . هذه الخصلة الأولى التي اتصفوا بها .

❖ والخصلة الثانية: أن القول خف عليهم ، مع أن القول ثقيل ﴿إِنَّا سَنُلْقِيْكَ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيْلًا﴾ [المزمل: ٥٠] ، القول ثقيل ينبغي لمن تكلم أن يحسب لقوله حسابا ، ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت)) فيحسب حسابا لقوله ، القول ثقيل ، ولهذا من خف عليه القول وأصبح الكلام عنده هينا لا يبالي بما يقول ولا يكثرث بما يتكلم من كان بهذه الصفة صار والعياذ بالله من أهل المماراة والجدل والخصومات .

❖ قال: ((وقلَّ ورعهم)) وهذه الصفة الثالثة التي هم متصفون بها؛ قلَّ ورعهم أي قلَّت فيهم الخشية والمراقبة لله سبحانه وتعالى .

فاجتمع فيهم خصال ثلاثة: ملل من العبادة ، وعدم مبالاة بالقول والكلام خف القول عليهم ، وأيضا ليسوا أهل مراقبة لله عز وجل ولا أهل ورع وخشية منه سبحانه ؛ فتكلموا أي هان عليهم أمر الكلام فصاروا أهل جدل وخصومة . وشاهد كلام الحسن حديث النبي المتقدم حيث قال عليه الصلاة والسلام : ((ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)) ثم تلا قول الله سبحانه وتعالى ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] .

فهذه الترجمة وما ساقه فيها المصنف رحمه الله من الشواهد والدلائل هي كلها في باب التشديد في طلب العلم لأجل المماراة والمجادلة والخصومة، وبيان أن الواجب على طالب العلم أن يصلح نيته في طلبه للعلم ، وأن يبتغي بطلبه للعلم وجه الله سبحانه وتعالى ، وأن يعد طلبه للعلم من قربه التي يتقرب بها إلى الله عز وجل يرجو بها ثوابه ويخشى عقابه سبحانه وتعالى ، وقد قال الإمام أحمد رحمه الله: «العلم لا يعدله شيء إذا صلحت النية» قيل وما صلاحها؟ قال: «أن تنوي به رفع الجهل عن نفسك وعن غيرك» ؛ أن يكون غرض الإنسان في طلبه للعلم أن يرفع أولا الجهل عن نفسه ليتفقه في الدين ، وأيضا أن يرفع الجهل عن إخوانه ببيان العلم لهم وإيضاح مسائله لهم وتحذيرهم مما هم عليه من خطأ وضلال وباطل ، فإذا كانت النية في الطلب هذه فهي نية صحيحة .

وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .